التمثلات الإنسانية في المقامات العربية (مقامات الحريري نموذجاً)

Human representations in Arabic shrines (Hariri's shrines as an example)

فرزانه حاج قاسمي
أستاذ مساعد في اللغة العربية وآدابها ، جامعة أصفهان ، إيران
farzaneh70.ghasemi@gmail.com
سمية حسنعليان (الكاتب المسؤول)
أستاذ مشارك ، قسم اللغة العربية وآدابها ، جامعة أصفهان ، إيران
s.hasanalian@fgn.ui.ac.ir

الملخص :

إحتل فن المقامة مساحة من الأدب العربي منذ القرن الرابع للهجرة بمبدعه بديع الزمان الهمذاني الذي صار قدوة الآخرين منهم أبوالقاسم الحريري فانجذبت المقامات الآذان بما فيه من المواضيع الأخلاقية ـ الإنسانية هادفا إلى معالجة الظروف الاجتماعية على رأسها الكدية بوصفها معضلة رئيسة والحياة الأخلاقية السائدة في المجتمع آنذاك. فانسياقا من هذا، قد سعى هذا البحث متّخذا المنهج الوصفي ـ التحليلي إلى دراسة التمثلات الإنسانية في مقامات الحريري كالعدالة، والإحسان، وما إلى تلك الصفات، مشيرا إلى الفقرات والأبيات التي تحمل تلك الإنسانية وقد أصبح الحريري متميزا بهذا الأسلوب التعبيري الساخر ـ الانتقادي. أسلوبه في بيان الرذائل الأخلاقية وثمراتها في الفرد والمجتمع ليس إلّا أن يصل إلى الفضائل كما أنه قد أشار إلى الآيات القرآنية في كثير من مقاماته. دراستنا هذه التمثلات، قد تبيّنت أنّ مقامات الحريري مملوءة بالقيم الإنسانية والخلقية فرفضت المعتقدة الشائعة أنّ المقامات خالية من النزعات الأخلاقية.

الكلمات المفتاحية : الحريري ، النثر الفني ، الأخلاقيات ، التمثلات الإنسانية .

Farzana Haj Qasemi
Assistant Professor in Arabic Language and Literature , University of Isfahan , Iran
Dr. Somayeh Hassanalian (responsible writer)
Associate Professor , Department of Arabic Language and Literature , University of Isfahan , Iran

Abstract

The art of Maqamat has occupied a space in Arabic literature since the fourth century AH with its creator, Badi al-Zaman al-Hamdhani, who became a role model for others, including Abu al-Qasim al-Hariri. The Maqamat call to prayer attracted the attention of the ethical-humanitarian topics that it contained, aiming to address the social conditions, most notably the Kadha as a major dilemma and the prevailing moral life in society at that time. In line with this, this research sought, taking the descriptive-analytical approach, to study the human representations in Hariri's positions, such as justice, benevolence, and other qualities, pointing to the paragraphs and verses that convey that humanity, and Hariri became distinguished by this sarcastic-critical expressive style. His method

of explaining moral vices and their fruits in the individual and society is nothing but reaching the virtues, and he also referred to Qur'anic verses in many of his maqamat. Our study of these representations has shown that Hariri's shrines are full of human and moral values, thus rejecting the common belief that shrines are devoid of moral tendencies.

Key words : Hariri , artistic prose , ethics , human representations .

1- المقدّمة :

إنّ فنّ المقامة وتدوين المقامات بوصفها فنّا من الفنون النثرية يعود إلى القرن الرابع للهجرة وهي حكي القصص والروايات القصيرة المزخرفة بالعبارات المسجعة المتأنقة المتزينة بالمحسنات اللفظية والمعنوية. أمّا بالنسبة لمعنى المقامة لغويا فهو بمعنى المجلس، والجماعة، والأندية؛ وجمعها المقامات. وفي المصطلح "ما يحكى في جلسة من الجلسات على شكل حكاية ذات أصول فنية. وموجز هذه الأصول أنّها حكاية قصيرة يسودها شبه حوار درامي، وتحتوي عبى مغامرت يرويها راو عن بطل يقوم بها".(الهلال، 2008م: 180)

يقال إنّ أوّل من قام بمثل هذا العمل هو بديع الزمان الهمذاني ولكن هناك أقوالا تتراوح بين الهمذاني وابن دريد (مرادي، 1388: 127؛ البستاني، 1979م: 390) فنّ المقامة لم يختم بالهمذاني؛ بل ازدهر بيد أبي محمد بن القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري الحرامي البصري (466 هـ\516هـ) أديب من أدباء البصرة. مقاماته كانت ممتزجة بالنثر والشعر خلاف ما وجدناه في مقامات الهمذاني؛ إضافة إلى ذلك مزخرفة بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والمواعظ التربوية ـ الأخلاقية، والأمثال العربية، والأحاجي والألغاز، والطرائف اللغوية، والمسائل النحوية والبلاغية، والمواعظ والحكم، والمحسنات البديعية كالكنايات، والإتيان بالأبيات الشعرية بهدف تعليم الناشئين اللغة وأسلوبها.

يقول الحريري في بداية مقاماته إنّني "أنشات على ما أعانيه من قريحة جامدة وفطنة خامدة وروية ناضبة وهموم ناصبة خمسين مقامة تحتوي على جد القول وهزله ورقيق اللفظ وجزله وغرر البيان ودرره وملح الأدب ونوادره والأضاحيك الملهية ... وما قصدت بالإحماض فيه إلا لتنشيط قارئه وتكثير سواد طالبيه ... " (الشريشي، د.ت: 31 - 29).

إنّه بذل أقصى جهده لبيان ما يجري في المجتمع آنذاك من الفساد، والظلم، والخدعة، والعدول عن الأخلاقيات، والظروف الاجتماعية وشدّة صعوبتها على الناس في العصر العباسي؛ منها الفقر على وجه العموم وفقر العلماء على وجه الخصوص بلغة متينة ومتكلفة في آن واحد وبأسلوب قصصي غير مباشر مستخدما أسلوب السخرية والتهكم، وذمّ الفقر وعاداته للوصول إلى لقمة العيش واختيار البطل المكدي الماكر الذي يترك الإنسانية جانبا والراوي الذي يهتمّ بالسلوك الإيجابي في القصص المتتابعة ذات الصلة. نجد في مقاماته القيم الخلقية الإنسانية التي أوصى بها الإسلام ورسوله (ص) لإنشاء مجتمع إسلامي فيه نزعات إنسانية وقيم أخلاقية ؛ في حين أنّ الكثير من النقاد كابن الطقطقي يذهب إلى أنّ مقامات الحريري ليست لها أية قيمة أخلاقية وتعليمية سوى تعليم المفردات وفن الكتابة "إنّ المقامات لا يستفاد منها سوى التمرن على الإنشاء والوقوف على مذاهب النظم والنثرز نَعَم وفيها حِكَمُ وحِيَلُ وتجارب إلّا أنّ ذلك مما يصغّر الهمّة، إذ هو مبني على السؤال والاستجداء والتحيّل القبيح على النزر الطفيف فإن نفعت من جانب ضرّت من جانب (ابن الطقطقي ، 1973م: 15)

أهداف البحث :

بناء على هذا، يستهدف هذا البحث إلى تناول القيم الإنسانية كالعدالة ، والإحسان ، والوفاء ، والصبر (نموذجا) تمّ ترتيبها على أساس الترتيب الموجود في كتاب د.مهدي رزق الله أحمد التي عبّر عنها الحريري في مقاماته ودراسة أساليبها المستخدمة لبيان تلك القيم البناءة ودورها البارز غير مباشرة وأنّ إصابة الأخلاق تؤدي إلى فساد الإنسان وصلاح المجتمع بحي إنّ بقاءه لا يحقق إلّا ببقاء القيم الأخلاقية.

منهج البحث :

أما المنهج الذي سار عليه البحث لدراسة القيم الأخلاقية والتربوية التي تمثل الإنسانية فقد كان المنهج الوصفي ـ التحليلي ، بوصفه أهم المناهج في دراسات العلوم الإنسانية وخاصة الأدب، ويقوم الدارس فيه بتقديم الجزئيات لما يدرسه ويصل إلى نتائج مشيرا إلى الدلائل والاستدلالات .

أسئلة البحث :

سنقوم بالإجابة على الأسئلة الآتية من خلال دراستنا :

1. ما الأخلاقيات التي توجد في مقامات الحريري ؟
2. كيف تجلّت الأخلاقيات والتمثلات الإنسانية في مقامات الحريري ؟
3. ما الأساليب التي اعتمد عليها الحريري للتعبير عن القيم الإنسانية في مقاماته ؟

2- خلفية البحث

هناك بحوث كثيرة درست مقامات الحريري من الرؤي المختلفة باللغتين الفارسية والعربية فإليك بعضها في التالي كنماذج:

1. "اقتباسات قرآنی در مقامات حریری" ، مجلة زبان و ادبیات فارسی دانشگاه آزاد اسلامی، واحد فسا، 1389، الدكتور نصراله شاملي وزهرا قاسم نجاد؛
2. "دراسة أسلوبية في مقامات الحريري المقامة السمرقندية نموذجا" ، الدكتورة مهين حاجي زاده وكاوه خضري، 1391، دراسات في نقد الأدب العربي الرقم 5؛
3. "صور من حياة العامة في مقامات الحريري" ، 2007، خالد محمود المزيد، دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 34، العدد 1؛
4. "اقتباس الحريري في مقاماتها من الأمثال العربية" ، إسحاق رحماني، 2011، مجلة اللغة العربية وآدابها، السنة السابعة، العدد 12؛
5. "بررسی مضامین اخلاقی در گلستان سعدی و مقامات حریری" ، سمیه مظهری صفات، احمد امیری خراسانی پاریزی، عنایت الله شریف پور، 1390، رسالة مقدمة للحصول على الماجستير؛
6. "کتاب‌شناسی مقامات در ایران باتکیه‌بر مقامات بدیع الزمان همدانی، حریری وقاضی حمیدالدین" ، 1392، محسن محمدي فشاركي وفاطمة إشراقي، كتاب ماه ادبيات، ش 75. ولم نحصل على بحث يتعلق بموضوع دراستنا في هذا الأخير الذي قام الباحثان فيه بتقديم المصادر والمراجع التي جعلت المقامات نصب عينيه.

3- البحث والدراسة

المراد بالقيم الإنسانية أنّها مجموعة من السلوك الإنساني الإيجابي والتصرفات الذاتية والوجدانية التي عني بها الإسلام وتعاليمه. وقوفا على هذه القيم يصل الإنسان إلى السعادة والحياة السعيدة في الدنيا والآخرة. إنّ فطرة الإنسان السليمة التي جعلها الله فيه هي مصدر الشيم الخلقية فتكون القيم الإنسانية ثابتة في مختلف المجتمعات وفي كل الأزمنة والأمكنة بحيث يقول القرآن إنّه (تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا) [البقرة:230].

إنّ القيم الأخلاقية من منظور الإسلام تنطوي على مجموعة من المبادئ التربيتية التي ترتّب السلوك الإنساني الإيجابي في المعاملات بين الناس في المجتمع والتقيّد بها يمهّد الطريق للوصول إلى مجتمع سليم؛

"تمثّل الأخلاق والقيم الجانب المعنوي أو الروحي في الحضارة الإسلامية، وأيضا الجوهر والأساس الذي تقوم عليه أية حضارة، وفي ذات الوقت تضمّن سرّ بقائها وصمودها عبر التاريخ والأجيال، وهو الجانب الذي إذا اختفى يوما فإنّه يؤذِن بزوال الدفء المعنوي للإنسان الذي هو روح الحياة والوجود" (السرجاني، د.ت: 1).

الأدب والأعمال الأدبية بأنواعها المختلفة بوصفها تعبيرا عن الإنسان وما يخلج فيه من الأحاسيس، ورغباته في الخير وعن الشر، وعن القضايا الاجتماعية، توفر فرصة طيبة لبيان التمثلات الإنسانية القيمة بيد الكاتب والشاعر كما فعله الحريري في حكايات أتى بها في مقاماته الخمسين.

1-3 الإطار العام للمقامات

نرى في كل المقامات بطلا يظهر في هيئة المكدي الماكر مع أنّه لا يحتاج إلى التبرعات المالية، وراويا يسرد للقارئ ما يقوم به البطل في رحلاته إلى المدن المختلفة ومعاملاته الآخرين. الحكايات كلّها تحمل قيمة إنسانية متابعتها ضروري في الحياة والحصول على السعادة. فنواصل الكلام دارسين الطريقة المتّخذة لبيان المواضيع الأخلاقية ـ الإنسانية والأساليب الأدبية المستخدمة معبرة عن تلك النزعات الإنسانية في المقامات موحية إلى ظروف المجتمع الاقتصادية، والثقافية، والأدبية، والأخلاقية.

2-3 القيم الإنسانية ـ الأخلاقية في مقامات الحريري:

في هذا القسم من البحث سنهتم بأهم القيم التي تمثل الإنسانية والجانب الأخلاقي والتربوي وقد ظهرت في مقامات الحريري بشكل واضح، مشيرين إلى نماذج من نصّ المقامات:

1-2-3 العدالة

إنّ كلمة "العدل" في اللغة مأخوذة من عَدَلَ يَعْدِلُ عَدْلاً بمعنى مالَ، والقصد في الطريق، وضدّ الظلم والجور (مصطفى، 1427ه: عدل)؛ وفي المصطلح بمعنى الانصراف في الحسنات والخيرات والانصراف عن الشهوات، والظلم، والجور كما أنّ العدل في الإسلام يعرَف بـ"أوجب الواجبات" (الجزائري، د.ت: 124) بحيث إنّ الله يبيّنه في القرآن الكريم (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسانِ وَإِيتاءِ ذِي الْقُرْبَى) [النحل،90] والآيات القرآنية الأخرى تتحدث عن العدل وأهله؛ وإضافة إلى ذلك إنّ "العدل" يعدّ اسما من أسماء الله عزّ وجلّ.

للعدالة وأهل العدل سمات تميز بها عن غيره في المجتمع ومعاملاته الاجتماعية مع الآخرين كـ "العدل في الحكم بين الناس بإعطاء كل ذي حقّ حقّه وما يستحقّه؛ العدل في القول فلا يُشهَد زور ولا يُقال كذب أو باطل؛ والعدل في المعتقد فلا يعتقد غيرالحق والصدق ولا يثني الصدر على غير ما هو الحقيقة والواقع" (المصدر نفسه، 125).

فبما أنّ مقامات الحريري لا تخلو من التحدث عن هذه القيمة الخلقية فنأتي بنموذجين من المقامة الصنعانية والكرجية نعالجهما من الوجهة الأسلوبية، والدلالية، والمحسنات الأدبية المستعملة وندرس مكانة العدالة في كلام الحريري من لسان البطل والراوي.

"تأمُرُ بالعُرْفِ وتَنتَهِكُ حِماهُ وتَحْمي عنِ النُّكْرِ ولا تَتَحاماهُ! وتُزحزحُ عنِ الظُّلْمِ ثمّ تغْشاهُ وتخْشَى الناسَ واللهُ أحقُّ أنْ تخْشاهُ! ثمّ أنْشَدَ:

تـبـاً لـطـالِـبِ دُنْـيـا ثَـنـى إلَـيـهـا انـصِـبـابَـهْ

مـــا يسْـــتَـــفـــيـــقُ غَـــرامـــاً بـــهـــا وفَـــرْطَ صَـــبـــابَـــهْ
ولـــوْ دَرى لَـــكـــفَـــــــــاهُ مما يَروم صُـــبابَهْ (المقامة الصـنعانية)

سبق علينا أنّ العدالة تظهر في الصدق والتجنب من التزوير والنفاق فهو مظهر من مظاهر العدل في المجتمع الإسلامي. من هذا المنطلق فإنّ الراوي الحارث بن همّام يسعى أن يفهم البطل أبا زيد السروجي مستخدما الجمل الخبرية المحتملة أغراض الانتباه والإقرار والتعجب بمقتضى حال المخاطب وبما أن هذه الجمل خالية من أدوات التأكيد فهي تخاطب المتلقي بوصفه خالي الذهن (عتيق، 2009م: 53 - 52؛ 67) يسعى الراوي أن يُفهم البطل أنّ قولك وعملك ليسا سويّين فهذا يبتعدك عن قيمة العدل الأخلاقية لأنّك تأمر الناس بالمعروف وتنهيهم عن المنكر في حين تقوم أنت بالمنكر والجور؛ في الحقيقة تخشى الآخرين وتغفل عن أنّ الله يراك وهو أحقّ أن تخشاه فهذه الخشية على الطريقة غير الصحيحة تجعلك بعيدا عن العدالة في القول والعمل.

في واقع الأمر أنّ الراوي في إشارته إلى المعاملات السلبية التي فيها تزوير، ونفاق، وخدعة يعبّر عن الأعمال المؤدية إلى تواجد العدالة وتنميتها في الشخص ومعاملته الآخرين غيرمباشرة؛ على سبيل المثال التقيد بالمعروفات، والتجنب عن المنكرات والجور، لخشية الله.

لذلك، يحاول الحريري أن يشجع المتلقي بأسلوبه التعبيري إلى أنّه على الإنسان أن يعيش في الدنيا ويعامل نظرائه بالصداقة بوصفها مظهر العدالة والبُعد عن الكذب وما يترك من الظلم، والفساد، والميل عن القصد واستقامة الطريق ثم يريد لطالب الدنيا خسرانا مناديا بالأسلوب الدعائي (الدعاء عليه) ويذمّه في التعبير الشعري لأنّ الذي يتبعها ويعتبر أقصى جهده العثور على متاع الدنيا ليس في سلوكه العدالة والانصراف إلى الجهة المستقيمة. إضافة إلى ذلك، إنّ استخدام حرف "لو" الامتناعية (يعقوب، د.ت: 585) في "لو درى لكافه ..." يدلّ على أنّ طلب الدنيا وما فيها يسدّ القلوب فمن غيرالمحتمل أن تدخلها المعرفة والدراية أي إنّه يعمل عمل عائق ضخم يمنع حلول العلم.

ونورد هنا نموذجا آخر في هذا الموضوع :

"فقال: ويْكَ ليسَ منَ العدْلِ سُرعةُ العذْلِ! فلا تعْجَلْ بلَوْمٍ هوَ ظُلْمٌ ولا تقْفُ ما ليْسَ لكَ بهِ عِلمٌ." (المقامة الكرجية)

كلمة العدل هنا تكون بمعنى القصد في العمل أي إنّ الإنسان العادل هو الذي يتأمّل في أمر ما، يقيّم جوانبه كلّها ثم يعامل الآخرين حسب تأملاته لكي لا يظلمهم بسلوكه غيرالحسن وبالباطل كما يقول الإمام الصادق عليه السلام «اتّقوا الله واعدلوا» (الكافي، ج 3\ 217، رواية 4).

كلمة "ويك" تدلّ على أمر خطير جرّبه الشخص في حين أنّ ذلك الأمر لم يكن محمودا فسرعة العذل ولؤم الناس دون تفكير يعدّان ميلا عن القصد فليس من العدل وفيها دلالة سلبية تكفّ الفاعل عن العدول عن الاعتدال والاقتصاد. يبيّن الحريري هذه النقطة الأخلاقية بالعبارتين الفعليتين التاليتين "لا تَجْعَلْ"، و"لا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ" مستعملا فعل المضارع في صيغة النهي التي يكون فيها التنبيه والإرشاد (عتيق، 2009م: 86) والجملة التفسيرية التأكيدية "هُو ظُلْمٌ" لجملة "فَلا تَجْعَلْ بِلَوْمٍ" التي تزيد مفهوم هذه القيمة الأخلاقية وأهميتها في السلوك الإنساني صفة العجلة في لؤم الآخرين ظلما وهذا يعارض العدالة ويبعد الشخص عن أن يكون مزيّنا بقيمة العدل الخلقية.

فضلا عن أنّ "العلم" في جملة " ولا تقْفُ ما ليْسَ لكَ بهِ عِلمٌ." بمعنى التفكير والحصول على المزيد من المعلومات حول أمر ما قبل القيام به فالوصول إلى حقيقة الأمر ومعرفته يدفع الشخص إلى أن يزيّن بقيمة العدل والقصد في معاملاته مع الناس وما يواجهه طيلة حياته من شتّى الأمور.

2-2-3 الإحسان

كلمة "الإحسان" لغةً مأخوذة من حَسُنَ يَحْسُنُ حَسَناً وقد استخدمت في باب الإفعال أَحْسَنَ يُحسِنُ إحْساناً بمعنى عَمَلَ مَعَهُ حَسَناً؛ ضدّ أساءَ والإساءة (مصطفى، 1427ه: حسن) ومصطلحا "هو الإخلاص في العمل والإتيان به على أتمّ فلا يكون فيه نفاق أو رياء" (يوسف موسى، 1960م: 142). للإحسان قسمان؛ قسم في العبادة وطاعة الله تعالى، وقسم في المعاملات.

إذا أنجز الشخص واجبه وشعر بمراقبة الله إياه ومشاهدته إياه فهو الإحسان في العبادة. أمّا الإحسان في المعاملات وفقا للآية القرآنية (لا تَعْبُدونَ إلّا اللهَ وَبِالْوالِدَيْنِ إحْساناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتامَى وَالْمَساكِينَ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حَسَنا) [البقرة، 83]، (وَاعْبُدوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إحْساناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتامَى وَالْمَساكِينَ وَالْجارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ) [النساء، 36] فهو يشمل معاملة الوالدين، والأقارب، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل بالرحمة، وصيانة الحقوق، والرعاية، وسدّ الجوع، وستر العورات، والرفق، وقضاء الحاجة، والهداية، والإطعام، وإلى مثل هذه الأعمال (يوسف موسى، 1960م: 143).

عندما نقرأ المقامات نجد فيها هذه الأمور بشكل كبير من لسان البطل المخدع الماكر الذي يتحدث عنها حتى يثير النفوس ويمتلك المال أم من لسان الراوي الذي يعظ المتلقى غيرمباشرة. الفقرة المختارة من المقامة المروزية تحمل قيمة الإحسان الخلقية :

"وأنْشَدَ مُقتَضِباً:

لا تحقِرَنّ أبيْتَ اللّعنَ ذا أدبٍ ... لأنْ بَدا خلَقَ السّرْبالِ سُروتا

ولا تُضِعْ لأخي التّأميلِ حُرمتَهُ ... أكانَ ذا لسَنٍ أم كانَ سِكّيتا

وانفَحْ بعُرْفِكَ منْ وافاكَ مختَبطاً ... وانعَشْ بغَوْثِكَ من ألفيتَ مَنكوتا

فخَيرُ مالِ الفتى مالٌ أشادَ لهُ ... ذِكْراً تناقَلَهُ الرُكبانُ أو صِيتا

وما على المُشتَري حمْداً بمَوْهِبَةٍ ... غبنٌ ولوْ كان ما أعْطاهُ ياقوتا

لوْلا المُروءةُ ضاقَ العُذْرُ عن فَطِنٍ ... إذا اشْرأبّ إلى ما جاوَزَ القوتا

لكنّهُ لابْتِناء المجْدِ جدّ ومِنْ ... حُبّ السّماحِ ثَنَى نحوَ العُلى لِيتا

وما تنشّقَ نشْرَ الشّكْرِ ذو كرَمٍ ... إلا وأزْرى بنَشرِ المِسكِ مَفتوتا

والحمدُ والبخلُ لم يُقضَ اجتماعهما ... حتى لقَدْ خيلَ ذا ضَبّاً وذا حوتَا

والسّمحُ في الناسِ محبوبٌ خلائِقُهُ ... والجامدُ الكفّ ما ينْفَكّ ممْقوتا

وللشّحيحِ على أمْوالِهِ عَلَلٌ ... يوسِعْنَهُ أبَداً ذمّاً وتبْكيتا

فجُدْ بما جمَعتْ كفّاكَ من نشَبٍ ... حتى يُرَى مُجْتَدي جَدواكَ مَبهوتا

وخُذْ نصيبَكَ منهُ قبلَ رائِعَةٍ ... من الزّمانِ تُريكَ العودَ منحوتا

فالدّهْرُ أنكَدُ من أن تستَمِرّ بهِ ... حالٌ تكرّهْتَ تلكَ الحالَ أم شيتا

(المقامة المروزية)

يبدأ الحريري كلامه معبّرا عن الرذائل الخلقية كتحقير الآخرين، وتضييع حقّهم، وهتك حرمتهم ناهيا المتلقي عنها دون اهتمام بظروفهم "أكانَ ذا لسَنٍ أم كان سِكّيتا"، باستخدام الفعل المضارع في صيغة

النهي الذي يمتلك من الوجهة الصوتية موسيقى نزولية أي يشرع من الصوت العالي إلى المنخفض فهذا النزول يحرّك السامع أن يستمع إلى الكلام وما بعده بوصفه نقطة هامة عظيمة (حسان، 1990م: 168). يرشدهم إلى الخيرات كالعون، والمعروف، والمروءة، والحمد، والسمح والجود معبّرا عنها بالأفعال الأمرية المكنونة فيها معان إرشادية والعبارات التشبيهية والاستعارية التي تجعل المخاطَب مهتماً بالنقاط الأخلاقية والقيمة الإنسانية الموجودة في الكلام وتثير أحاسيسه وتجعله يستعد أن يقوم بها في العيش حيث إنّ الله يقول في عظمة الإحسان باعتباره خلقا نبيلا هكذا (فَـأَتاهُمُ اللهُ ثَوابَ الدُّنيا وَحَسُنَ ثوابِ الآخرةِ واللهُ يُحِبُّ المُحسِنينَ) [آل عمران، 148].

من الوجهة النحوية والدلالية إنّ الفعل المضارع بصيغة النهي في البيت الأوّل يكون مؤكَّدا بالنون الثقيلة التي تزداد الفعل معنىً وبما أنّ الحقارة ضدّ الإحسان والتكريم فالحريري يبدأ كلامه ببيان هذه القيمة الخلقية مستعملا النهي والتأكيد حتى يومئ إلى التحقير والازدراء كصفة من صفات الشخصية النرجسية (الطنياوي، 2018 - 2017م: 215) وأنّ الخطوة الأولى للوصول إلى سمة الإحسان في المعاملات الاجتماعية هي التجنب من إذلال الآخرين وتحقيرهم.

في البيت الثاني يستخدم فعل النهي دون أي تأكيد "لا تضع أخي التأميل حرمته"؛ في البيت الثالث يأتي بفعل الأمر المحتمل معنى الإرشاد وفي الأبيات التالية يجيء بالجمل الخبرية المفسِّرة السابقات والمثيرة للأحاسيس ففي الأخيرة يذمّ الزمان وما يفعله من الصيرورة والتقلب ويحذّر الناس قائلا إنّ الدّهْر "أنكَدُ من أن تستَمـرّ بـهِ حالٌ تكرّهْتَ تلكَ الحالَ أم شيتا" ويذكّر المتلقي أنّ الأيام تجري بسرعة كبيرة ولا تبقى في حالة محدّدة وهي قليلة الخير؛ بل تتراوح بين الجيدة والسيئة كما توجد هذه الحالة في الأمثال العربية: "الدهر أبلغ في النكير" أي إنّ الدهر يتغير ما يأتي عليه و"الدهر أنكب لا يُلبّ" (الميداني، 1959م،1: 272) فلذلك الأجدر بالإنسان أن يتذكر هذه النقطة ويعامل إخواته معاملة حسنة ويحسِنهم. في الحقيقة، يأتي الحريري بالجملات الصغرى والكبرى ففي النهاية يعرض النتيجة بأسلوب منطقي.

3-2-3 الوفاء

إنّه مصدر فعل وَفَى يَفي وَفاءً ووَفْياً بعهده؛ بمعنى عمل به، أدّاه كاملا، أنجزه كما وعد، أتمّه (ابن منظور، 1994م: وفـي) وبمعنى "الخلق الشريف العالي الرفيع" وفي المصطلح "صدق اللسان والفعل معاً". (رزق الله أحمد، 2012م: 135)

هناك أنواع للوفاء؛ الوفاء بالعهد، وبالعقد، وبالوعد وهي جاءت في القرآن الكريم كما وصلتنا الأحاديث النبوية والأحاديث التي وردت في السيرة عن القيم التربوية للوفاء وهي تدلّنا على هذه القيمة الإنسانية واتّخاذها في الحياة (المصدر نفسه). هذه السمة الأخلاقية قد جاء ذكرها في القرآن الكريم منسوبا إلى الأنبياء كلّهم ونبيّنا (ص) (إِنَّهُ كانَ صادِقَ الْوَعْدِوَكانَ رَسُولاً نَبِيّاً) [مريم، 54].

عبّر الحريري عن هذا المفهوم في المقامة الحجرية من لسان فتى ليس يملك مالا كافيا ليدفع أجرة الشيخ الذي قد قام بالحجامة. الفتى يطلب منه فرصة ليكسب النقود أمّا الشيخ فيجيبه بالعبارات التالية عن الوفاء بالعهد وأدائه:

"قالَ الفتَى: والذي حرّمَ صوْغَ المَينِ كما حرّمَ صيْدَ الحرَمَينِ إنّي لأفْلَسُ من ابنِ يوْمَينِ فثِقْ بسَيلِ تلْعَتي وأنْظِرْني إلى سَعَتي فقالَ لهُ الشيخُ: ويْحَكَ إنّ مثَلَ الوُعودِ كغرْسِ العودِ! هوَ بينَ أن يُدركَهُ العطَبُ أو يُدرَكُ منهُ الرُّطَبُ فما يُدْريني أيَحْصُلُ منْ عودِكَ جَنًى أم أحصُلُ منهُ على ضنًى؟ ثمّ ما الثِّقَةُ بأنّكَ حينَ تبتَعِدُ ستَفي بما تعِدُ؟ وقد صارَ الغدْرُ كالتّحْجيلِ في حِلْيَةِ هذا الجيلِ فأرِحْني باللهِ منَ التّعذيبِ وارْحَلْ إلى حيثُ يَعْوي الذّيبُ فاسْتَوى الغُلامُ إليْهِ وقدِ استولى الخجَلُ علَيْهِ وقال: واللهِ ما يَخيسُ بالعهْدِ غيرُ الخَسيسِ الوغْدِ

ولا يرِدُ غَديرَ الغَدْرِ إلّا الوَضيعُ القدْرِ؛ وَلَو عَرَفْتَ مَنْ أنا، لَما أَسْمَعْتَني الخنا؛ لكنَّكَ جَهِلْتَ فَقُلْتَ، وَحَيْثُ وَجَبَ أنْ تَسْجُدَ بلْتَ، وَما أَقْبَحَ الْغُرْبَةَ وَالْإِقْلالَ، وَأَحْسَنَ قَوْلَ مَنْ قَالَ :

إنَّ الْغَرِيبَ الطَّويلَ الذَّيْلِ مُمْتَهَنٌ فَكَيْفَ حَالُ غَريبٍ ما لَهُ قُوتُ!

لَكِنَّهُ لا تَشِينُ الْحَرَّ مُوجِعَةٌ فَالْمِسْكُ يُسْحَقُ وَالْكافُورُ مَفْتوتُ

وَطالَما أَصْلِيَ الْياقُوتُ جَمْرَ غَضىً ثُمَّ انْطَفَى الْجَمْرُ وَالْياقُوتُ ياقُوتُ"

(المقامة الحجرية)

في هذه الفقرة أشير إلى سمة الوفاء، وما يلازمها، وقيمتها لدى الناس وحضورها القليل في المجتمع آنذاك بحيث لا يقبل أحد (الشيخ) قول الآخر (الفتى) إنّه سيفي بالعهد. فالكاتب قد استخدم صنعة التشبية الأدبية، والتمثيل (صاحب العهد يجسّد عودا ليس من المعلوم أنّه يثمر أم لا)، والهمزة الاستفهامية وأم المتصلة، وما الاستفهامية بمعنى النفي ليدل على عدم تواجد حسن الوفاء بالعهد من جانب صاحب العهد "ما الثِّقَةُ بأنّكَ ..."، وذكر ما لديه من الشكّ فيقتصر الكاتب هذه السمة غير الأخلاقية المسمّية "الغدر والخدعة" على أهل العصر "وقد صارَ الغدْرُ كالتّحْجيلِ في حِلْيَةِ هذا الجيلِ" ويعبّر عنها بالحلية والزينة كأمر واضح وبياض في قوام الفرس على هيئة التهكم والسخرية كما يعدّ من لا يفي بعهده الوضيع القدر.

قصد الكاتب من هذا الوفاء، الوفاء بالوعد وفق التصنيف الذي سبقنا ذكره، عندما يقول الشيخ للفتى "ما الثقة بأنّك ..." في الحقيقة يحاول الكاتب أن يشير إلى الفوائد الاجتماعية والتربوية التي اكتمنت في الوفاء بالوعد مثل ما قال النبي (ص) عنها هكذا "من القيم التربوية الأساسية لبناء المجتمع الإسلامي الربّاني، حيث تشمل هذه القيمة سائر المعاملات بين الناس، فتجلب الثقة في العلاقات الداخلية والمحلية والدولية" (رزق الله أحمد، 2012م: 137). وفي الأبيات الأخيرة يوحي إلى أنّ التقيد بالقيم الخلقية أمر ذاتي وفطري لا اكتسابي آتيا بالمثالين التاليين:

" فَالْمِسْكُ يُسْحَقُ وَالْكافُورُ مَفْتوتٌ"، و"الْياقُوتُ ياقُوتٌ". فلا تكون الإنسانيات تحت سلطة البيئة الخارجية؛ بل إنّ الأخلاقيات تنمو وهي تأخذ قوتها من الضغط الذي يولّده العالم الخارجي بما فيه من المزعجات، والبلاياء، والصعوبات.

إضافة إلى ذلك، إنّ ملازم الوفاء على وجه العموم والوفاء بالعهد على وجه الخصوص يكون في هذه العبارة مشاراً إليه بشكل غير مباشر وهو الثقة كما أنّ العبارة الاستفهامية " ثمّ ما الثِّقَةُ بأنّكَ حينَ تبتَعِدُ ستَفي بما تعِدُ؟" توحي إلى أنّ في ذلك العصر النّاس لم يكونوا أوفياء بعهودهم فحسب، بل هم يخادعون بعضهم البعض بشكل كبير بحيث لا توجد أيّة ثقة بين أفراد المجتمع فالحالات الاقتصادية والسياسية المهيمنة عليه أدّت إلى إزالة الأخلاقيات في التجارة والصفقات؛ "هذه المقامات، إلى جانب كونها نصوصا أدبية، وثائق اجتماعية تظهر فيها جوانب متعددة من صور حياة العامة"؛ منها أهمية المال، والفقر والحاجة، والعناية بمظهر الإنسان، وحالة البؤس الذي وصل إليها بعض الفقراء، وفقر العلماء والأدباء (المزيد، 2007م: 90 - 84).

في الواقع، أنّ الحريري يذكر الأعمال الشنيعة وعدم الالتزام بالأحكام الإسلامية بين الناس وما تترك بصماتها على جسد المجتمع من الشرّ، والسيئات، والشناعة ليبين الحسنات وقيمتها في السلوك الإنساني فمقاماته مفعمة بالأعمال الحسنة والمعروفة بأسلوب السخرية المرة. فمقاماته جديرة بالدراسة والتناول من الوجهة الخلقية.

ونورد هنا نموذجا آخر:

"يقولُ لسَميره في الرّحالِ: كيفَ حُكْمُ سيرَتِكَ معَ جيلِكَ وجيرتِكَ؟ فقال: أرْعَى الجارَ ولوْ جارَ وأبذُلُ الوِصالَ لمَنْ صالَ وأحْتَمِلُ الخَليطَ ولوْ أبْدى التّخليطَ وأودّ الحَميمَ ولو جرّعَني الحَميمَ وأفضّلُ الشّفيقَ على الشّقيقِ وأفي للعَشيرِ وإنْ لمْ يُكافئْ بالعَشيرِ وأستَقِلُّ الجَزيلَ للنّزيلِ وأغمُرُ الزّميلَ بالجميلِ وأنزّلُ سَميري منزِلَةَ أميري وأُحِلّ أنيسي محَلّ رَئيسي وأُودِعُ مَعارفي عَوارفي وأُولي مُرافِقي مَرافقي وأُلينُ مَقالي للقالي وأُديم تَسْآلي عنِ السّالي وأرْضى منَ الوَفاء باللّفاء وأقْنَعُ منَ الَجزاء بأقَلّ الأجزاء ولا أتظلّمُ حينَ أُظلَمُ ولا أنْقَمُ ولو لدَغَني الأرقَمُ فقال لهُ صاحبُه: ويْكَ يا بُنيّ إنّما يُضَنّ بالضّنينِ ويُنافَسُ في الثّمينِ لكِنْ أنا لا آتي غيرَ المُؤاتي ولا أسِمُ العاتي بمُراعاتي ولا أُصافي مَنْ يأبى إنْصافي ولا أُواخي مَنْ يُلْغي الأواخ. ولا أُمالي مَنْ يُخيّبُ آمالي ولا أُبالي بمَنْ صَرَمَ حِبالي ولا أُداري مَنْ جهِلَ مِقداري ولا أُعطي زمامي مَنْ يُخْفِرُ ذِمامي ولا أبْذُلُ وِدادي لأضْدادي" (المقامة الدمياطية).

التحدث عن السيرة وكيفية المعاملة مع الجيران في بداية الفقرة "كيفَ حُكْمُ سيرَتِكَ معَ جيلِكَ وجيرتِكَ؟" يلقي الضوء على أنّ الوفاء أمر نفسي والقيام به وعدمه يوضّحان سلامة الشخص النفسية أي هناك علاقة ثنائية مباشرة بين الالتزام بالأخلاقيات والصحة النفسية لأنّ الذي يتمتع بالصحة النفسية يحترم نفسه فلا يتعدّى إلى حقوق الآخرين.

قد أكّد الشخص وفاءه بالعهود والأعمال مستخدما جملة "وأفي للعَشيرِ وإنْ لمْ يُكافئْ بالعَشيرِ" الشرطية التي لم يأت بجوابها مباشرة؛ بل الجملة الأولى "وأفي للعَشير" تفسّرها. وفعل الجملة الأولى التي بدأت به يكون مضارعا يدلّ على الاستمرار والتواصل في الأمر.

وفي السطور الأولى من هذه الفقرة، يأتي بالأفعال التي يقوم بها والتزامه بالقيام بها ولو كان في حالة سيئة تدمر حالات الشخص النفسية وتجعله يعملها دون اهتمام بالأخلاقيات؛ على سبيل المثال يقول إنّني "أرْعَى الجارَ ولوْ جارَ وأبذُلُ الوِصالَ لمَنْ صالَ وأحْتَمِلُ الخَليطَ ولوْ أبْدى التّخليطَ وأودّ الحَميمَ ولو جرّعَني الحَميمَ .... ولا أتظلّمُ حينَ أُظلَمُ".

فيمكننا القول بأنّ العناية بالقيم الخلقية من منظور الحريري تُعدّ نوعا من الوفاء بالعهود الإنسانية تجاه الآخرين في ذلك المجتمع مشارا إلى مدى صحة المُعنى بتلك القيم النفسية؛ في حين أنّ السطور الأخيرة تبيّن شيئا ضدّ الأول. أي يذكر القسم الثاني من أفراد المجتمع الذين لا يهتمون بالإنسانيات ومعاملة الآخرين بألين السلوك. فهم يعامِلون الناس كما يعامَلون؛ على سبيل المثال يقول إنّي "لا أُمالي مَنْ يُخيّبُ آمالي ولا أُبالي بمَنْ صَرَمَ حِبالي ولا أُداري مَنْ جهِلَ مِقداري ولا أُعطي زمامي مَنْ يُخْفِرُ ذِمامي ولا أبْذُلُ وِدادي لأضْدادي". هذه الأفعال التي استعملها الكاتب ليعبّر بها عن شخصية بعض الناس ومعنوياتهم في المجتمع آنذاك ترتبط بمدى صحتهم النفسية والتزامهم بالأخلاقيات.

4-2-3 الصبر وذمّ الخيبة

كلمة الصبر مأخوذة من صَبَرَ يَصْبِرُ صَبْراً عنِ الشَّيْء: أَمْسَكَ، وعن الأمر: حَبَسَهُ عَنْه (المعجم الوسيط، صبر). إنّ الصبر والحلم يعدّان ميزتين من ميزات المؤمن وهما يجعلانه على وشك الظفر كما أنّ هذه الصفة بوصفها زينة المؤمن تكون في بؤرة اهتمام القرآن الكريم والأئمة (عليهم السلام) والمسلم قد أوصي بها في الشدائد وأمام بنات الدهر. لهذه الصفة ثلاثة أنواع رئيسة: الصبر على طاعة الله، والصبر عن معصية الله، والصبر على المحن والشدائد" (رزق الله أحمد، 2012 م: 137).

فهذه القيمة الأخلاقية الذاتية قد احتلت بعض سطور مقامات الحريري وظهرت كحلّ أساسي للمشكلات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي كانت مخيمة على الناس في العصر العباسي؛ فربّما قد اختار الحريري الصبر باعتباره سمة قيّمة حلّا لمثل هذه المشكلات مستخدما أسلوب السخرية والتهكم ليبين ضعف السلطات العباسية في شؤون المجتمع المختلفة ويكشف عمّا فيه الشعب يعيش من الحالة الاقتصادية

السيئة وما تترك على الجوانب الأخرى من حياتهم الفردية والجماعية غير مباشرة؛ لأنّ "مردّ ذلك إلى أنّ المبدع لا يعرض أفكاره بمعزل عن المؤثّرات الاجتماعية والمتغيرات السياسية والحقول الفكرية التي ارتوى منها ليقتلع تماما عن هذه المؤثرات والمؤشرات" (مسبوق ودلشاد، 1438: 84).

من الأمثلة التي نجدها في المقامات عن الصبر والحلم، المقامة النصيبية يقول فيها هكذا:

"قُلْنا لهُ: ألَمْ ترَ إلى هذا اليومِ البديعِ؟ كيفَ بَدا صُبحُهُ قمْطَريراً ومُسْتَنيراً؟ فسجَدَ حتى أطالَ ثمّ رفَعَ رأسَهُ وقالَ :

لا تيْأسَنْ عندَ النُّوَبْ مِنْ فرْجَةٍ تجلو الكُرَبْ

فلكَمْ سَمومٍ هبّ ثـ ـمّ جرَى نسيمً وانقَلَبْ

وسَحابِ مكْروهٍ تنـ شّا فاضْمَحَلّ وما سكَبْ

ودُخانِ خطْبٍ خِيفَ منْـ ـه فما استَبانَ لهُ لهَبْ

ولَطالَما طلَعَ الأسى وعلى تَفيئَتِه غرَبْ

فاصْبِرْ إذا ما نابَ روْ عٌ فالزّمانُ أبو العجَبْ

وتَرَجّ مِنْ رَوْحِ الإلـ ـهِ لَطائِفاً لا تُحْتَسَبْ

(المقامة النصيبية)

إنّ فنّ الشعر بوصفه أداة لها بالغة الأثر على النفوس يستخدَم في أكثر الأحيان لخلود المطلوب في الذهن. فالكاتب قد اختار الشعر لبيان قيمة الصبر الأخلاقية والاجتناب من اليأس والخيبة في مواجهة الصعوبات وبنات الدهر.

أما الأسلوب المختار الذي مهّد القارئ للوصول إلى الأبيات التي تنطوي على الحثّ على اختيار الصبر أمام المشكلات فهو تمهيد المتلقي باستخدام الجملتين الاستفهاميتين اللتين تحركان النفس للاطلاع على الإجابة حينما يقول إنّه "كيفَ بَدا صُبحُهُ قمْطَريراً ومُسْتَنيراً؟" وتجعلانها مستعدة للموضوع الرئيس الذي يريد التحدث عنه أي الحالات السود تنتهي إلى الأبيض وأبيض الحالات تصل إلى الأسود فالمهم فيهما التزام بالصبر وعدم الخيبة واليأس آتيا بعبارة "لا تيْأسَنْ عندَ النُّوَبْ "؛ لأنّها لا تدوم إلى الأبد؛ بل تتغير على الدوام كما يقول القرآن الكريم (وَإِنْ تَصْبِروا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكم شيئا) [آل عمران، 12]، ومن الأحاديث التي قد ذكِرت في السيرة النبوية عن الصبر حديث يقول إنّ «الصبر على المصائب أعلى مقامات الصبر منزلة» (رزق الله أحمد، 2012 م: 138)؛ والإمام الصادق عليه السلام يقول إنّ «الصبر في الأمر بمنزلة الرأس من الجسد» (الكافي ج 3\ 143، رواية 9).

إنّ الراوي لبيان هذه الحالة يوصي بالصبر على المحن والشدائد متّخذا نماذج من الظواهر الطبيعية (الرياح الحارة، والنسيم، والسحاب، والمطر، والدخان، والحطب) التي يراها الإنسان في البيئة كلّ يوم. يجسّد طريق تخليصه من النائبات في جري النسيم الذي يترك الرياح الحادة إلى جانب ليقول إنّ هبوط النازلات لا يسدّ كلّ المداخل والمنافذ التي توفر فرصة إنقاذ الإنسان من الصعوبات فاليأس لا يعدّ حلّا مناسبا وليس خيارا مفضّلا لديه.

من الوجهة البديعية، قد اختيرت الصناعات الأدبية كالتشبيه والتمثيل والاستعارة والكناية معبّرة عن تغير الحالات المخيمة على الإنسان، والصبر والتحمّل وترك اليأس؛ على سبيل المثال حينما يقول "فلكَمْ سَمومٍ هبّ ثـ/ مّ جرَى نسيمً وانقَلَبْ ـ وسَحابِ مكْروهٍ تنـ / شّا فاضْمَحَلّ وما سكَبْ ـ ودُخانِ خطْبٍ خِيفَ منْ / هُ فما استَبانَ لهُ لهَبْ".

في البيت الأول استعار السموم والرياح الحارة عن المشكلات والصعوبات التي تمرّ بالشخص ومن النسيم والرياح الهادئة عن المسرورات والرفاهية في العيش كما أنّ السحاب المكروه الذي لا يحمل المطر والنعمة والنشاط يضمحلّ في الأخير لا يبقى في السماء على الدوام فعلينا في هذه الحالة أن نتّخذ الصبر على النازلات مثل ما قال القرآن: (يا أيها الذين آمنوا إستعينوا بالصبر) [البقرة، 153]. الأبيات كلّها تتحدث عن حلّ المشكلات بمرور الزمن وعبارة "فالزّمانُ أبو العجَبْ" تؤكد هذه النكتة التي توجد في الأمثال العربية؛ على سبيل المثال: "الصبر مفتاح الفرج" (شاهد، 1379: 163) و"دواء الدهر الصبر عليه". (المصدر نفسه، 106)

وقد ورد في المقامة الإسكندرية: "وقال: أمَا إنّهُ قدْ ثبَتَ عندَ جميع الحُكّامِ ووُلاةِ الأحْكامِ انقِراضُ جيلِ الكِرامِ وميْلُ الأيامِ إلى اللّئامِ وإنّي لإخالُ بعْلَكِ صَدوقاً في الكلامِ بريّاً من المَلامِ وها هو قدِ اعتَرَفَ لكِ بالقَرْضِ وصرّحَ عنِ المَحْضِ وبيّنَ مِصْداقَ النّظْمِ وتبيّنَ أنّه مَعروقُ العظْمِ وإعْناتُ المُعْذِرِ مَلأمَةٌ وحبْسُ المُعسِرِ مألَمةٌ وكِتْمانُ الفَقْرِ زَهادَةٌ وانتِظارُ الفَرَجِ بالصّبرِ عِبادَةٌ فارْجِعي إلى خِدرِك واعذُري أبا عُذْرِكِ ونَهْنِهي عن غَرْبِكِ وسلّمي لقَضاءِ ربّكِ ثمّ إنّهُ فرضَ لهُما في الصّدقاتِ حِصّةً وناوَلَهُما منْ دَراهِمِهما قَبصَةً وقال لهُما: تعلّلا بهذه العُلالَةِ وتندّيا بهذِهِ البُلالَةِ واصْبِرا على كيْدِ الزّمانِ وكدّهِ فعَسى اللهُ أنْ يأتيَ بالفَتْحِ أو أمْرٍ من عِندِه فنَهَضا وللشّيخِ فرْحَةُ المُطْلَقِ من الإسارِ وهِزّةُ الموسِرِ بعْدَ الإعْسارِ" (المقامة الإسكندرية).

في هذه الفقرة من المقامة الإسكندرية نجد الصبر بنوعيه؛ الصبر على طاعة الله، والصبر على المحن و الشدائد. فالصبر على طاعة الله مكنون في العبارة الاسمية المدلّة على الثبوت والدوام "وانتِظارُ الفَرَجِ بالصّبرِ عِبادَةٌ".

وهنا يجدر بنا أن نشير إلى تعريف المفردات المستخدمة في هذه العبارة لنصل إلى المفهوم الرئيس المأخوذ من تركيبها في جملة واحدة لأنّ معنى المفردات يتحوّل حسب موقعها في التراكيب المختلفة (شاملي وحاجيقاسمي، 1396: 103)؛ فكلمة الانتظار هنا بمعنى "التأني على الشيء، والترقّب والتوقّع"، والفرج يكون بمعنى "انكشاف الغمّ، انفراج الهمّ"، والصبر يعني "التجلّد ومواجهة المصائب والبلايا بجرأة"، والعبادة بمعنى "الخضوع للإله على وجه التعظيم؛ إقامة الشعائر الدينية" (ابن منظور، 1994م: أنِي؛ فـرج؛ صـبـر؛ عـبـد).

عندما يواجه الإنسان مصيبة ما فعليه أن يتمسك بالصبر وهو الاستمداد بالله تعالى مؤمنا بمعونته عبر إقامة الشعائر الدينية دون التجزع بسبب نزول البلية متأنيّا على إزالة تلك المصيبة وانكشاف ما تترك على العالم الداخلي للشخص من الغمّ، والهمّ، والكآبة فالاستعانة بالله في هذه الظروف الصعبة تعدّ الصبر على طاعة الله وتزيد العبودية في الشخص.

من هذا المنطق، يمكننا القول إنّ دلالة هذه العبارة الاسمية توصلنا إلى النوعين من الصبر في عبارة واحدة فهما الصبر على البلايا والصبر على طاعة الله مشارة إلى فضيلة الصبر بوصفه قيمة أخلاقية عند نزول البلايا كما جاءت في أحاديث منقولة عن الأئمة عليهم السلام؛ على سبيل المثال يقول الإمام علي عليه السلام «الصبر على البلاء أفضل من العافية في الرخاء» (الآمدي، مج1، 1377: 454)؛ يقول النبي صلوات الله عليه وعلى آله: «علامة الصابر في ثلاث: أوّلها لا يكسل، والثانية أن لا يضجر، والثالثة أن لا يشكو من ربّه تعالى؛ لأنّه إذا كسل فقد ضيّع الحقّ، وإذا ضجر لم يؤدّ الشكر، وإذا شكا من ربّه عزّ وجلّ فقد عصاه» (المجلسي، 1983م، 68: 86).

والصبر على المحن يتبلور في العبارات الاسمية والفعلية الأمرية الإرشادية التالية: "وحبْسُ المُعسِرِ مأْلَمةٌ" و"كِتْمانُ الفَقْرِ زَهادَةٌ"، و"وسلّمي لقَضاءِ ربّكِ"، و"واصْبِرا على كيْدِ الزّمانِ وكدّهِ فعَسى اللهُ أنْ يأتيَ بالفَتْحِ أو أمْرٍ من عِندِه".

الحبس مصدر فعل حَبَسَ يَحْبِسُ حَبْساً بمعنى المنع والإمساك، السجن؛ والمُعْسِر يكون بمعنى الضيق والشدّة؛ والمألمة بمعنى مكان يوجد فيه الألم؛ والكتمان مصدر فعل كَتَمَ يَكْتُمُ كَتْماً وكِتْماناً بمعنى الإخفاء والستر والحبس؛ والزهادة مصدر فعل زَهَدَ يَزْهَدُ زُهْداً وزَهادَةً بمعنى الزهد والإعراض عن الدنيا للعبادة والتقوى؛ تسليم مصدر باب تفعيل سَلَّمَ يُسَلِّمُ تَسْليماً بمعنى الخضوع والتفويض؛ والقضاء يكون بمعنى الحُكم؛ الكَيْد مصدر فعل كادَ يَكيدُ كَيْدا بمعنى الخدعة والمكر؛ والكدّ مصدر فعل كَدَّ يَكُدُّ كَدّاً بمعنى الجهد الخالص، والسعي، الطرد (ابن منظور، سلم؛ حبس؛ كتم؛ كيد).

يتحدث البطل عن صعوبات الحياة ويرشد الزوجين إلى الطريقة الصحيحة للاستمرار قائلا إنّ تفويض الأمر إلى الله "سلّمي لقَضاءِ ربّكِ" حلّ لقبول الظروف الحالية يحضّهما على الصبر تجاه تلك المشكلات المؤدّية إلى الألمين النفسي والمادي ـ مع أنّ البطل يشير إلى أنّ حبس الضيق وإخفاء الفقر صعب وفيهما المشقة والتجنب من الراحة ـ مستعارا إياها عن الكيد والكدّ اللذين ينسَبان إلى الزمان ويقصَد به الدهر واختلاف الليل والنهار ثم يشجّعهما على الرجاء من الله وفتح العقدة مؤتيا بالآية القرآنية (فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِه) [المائدة، 52] ليؤكّد أنّ الله ينجي الصابر على نزول البلاياء كما أتى القرآن بهاتين الآيتين (وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ* الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ * أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ) [البقرة، 157 ـ 155]، إذ الرجاء من الله تعالى مؤشرة من مؤشرات الصابر على الشدة والمصيبة.

أما الكلام من الوجهة البلاغية فهو يحمل العبارات الاستعارية والكناية التي تزيده جمالا من حيث أنه قد استعير الزمان أو الدهر للإنسان الذي يبذل أقصى جهده ويشتدّ في عمله ليخدع الآخرين ويمكرهم؛ كما استعير الكيد والكدّ عن الأزمات والمصائب التي يواجهها الفرد في حياته. فحبس الضيق والشدة يعتبر ضربا من الصبر على المحن والشدائد؛ لأنّ الإنسان المصاب ببلية يمنع نفسه عن العصيان والقيام بأعمال تضعه في عمق الورطة بدلا من أن تنفذه فيختار حبس النفس ويسوقها إلى التجلّد والاحتمال دون أي جزع وتوجّع.

في عبارة "كِتْمانُ الفَقْرِ زَهادَةٌ" نرى نوعا من الصبر عن الشهوات والامتناع عن الخوض في الأمور الدنيوية والابتعاد عن الله وطاعته فيمكن القول إنّ إرشاد الزوجين إلى اختيار الزهد من قبل البطل غيرمباشرة يعتبر تشجيعا إلى اتّخاذ الصبر على المحنة.

4ـ الخاتمة والنتائج

يشجع الحريري في مقاماته المتلقي إلى أن يعيش في الدنيا معاملا نظرائه بالعدالة، والإحسان، والوفاء بالعهود، والصبر بأسلوبه التعبيري الساخر ـ الانتقادي، والأبيات الشعرية الراسخة في القلوب والتعابير النثرية المفعمة بمختلفة المحسنات البديعية كالتشبيه، والاستعارة، والكناية وأساليب علم المعاني حتى يثير النفوس ويعظها مستخدما الآيات القرآنية تلميحا أو غيرها اتعاظا غير مباشر.

يبيّن النقاط الأخلاقية بالعبارات الفعلية المصنوعة من الفعل المضارع وفيه دلالة استمرارية، في صيغة النهي التي يكون فيها التنبيه والإرشاد حاملة المستوى الصوتي النزولي يحرّك السامع أن يستمع إلى الكلام؛ على سبيل المثال: "لا تَجْعَلْ"، و"لا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ".

فخلال تبيين المضامين الأخلاقية الموجودة في المقامات تشرَح للقارئ حالة المجتمع في الاقتصاد، والسياسة، وظروفه الاجتماعية، والحياة الأخلاقية والدينية الشائعة بين الناس آنذاك. في الواقع، إنّ

الحريري يذكر قيام الناس بالأعمال غير المحمودة للحصول على المال مشيرا إلى الأوضاع الاقتصادية ومولودها الفقر، وعدم التزامهم بالمبادئ الإسلامية وما يترك بصماته على جسد المجتمع من الشرّ والسيئات ليبين الأخلاقيات وقيمتها في السلوك الإنساني بأسلوب السخرية المرة.

قائمة المصادر والمراجع

إن خير مانبتىء به القرآن الكريم .

1. الآمدي ، عبدالواحد بن محمد (1377هـ) ، غرر الحكم ودرر الكلم ، ترجمة : محمدعلي أنصاري ، تهران : محمدعلي الأنصاري القمي .
2. البستاني ، بطرس (1979م) ، أدباء العرب في الأعصر العباسية حياتهم ـ آثارهم ـ نقد آثارهم ، بيروت : دارالجيل .
3. الجزائري ، أبوبكرجابر(بلا . ت) ، منهاج المسلم كتاب عقائد وآداب وأخلاق وعبادات ومعاملات ، القاهرة : دارالسلام .
4. حسان ، تمّام (1990م) ، مناهج البحث في اللغة ، القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية .
5. رزق الله أحمد ، مهدي (2012م) ، القيم التربوية في السيرة النبوية ، الرياض : جامعة ملك السعود .
6. السرجاني ، راغب (بلا . ت) ، الأخلاق والقيم في الحضارة الإسلامية ، موقع نصرة رسول الله .
7. شاملي ، نصراله ؛ حاجيقاسمي ، فرزانه (1396هـ) ، «شبكه شعاعى معناى «ديدن» در خطبه‌هاى نهج البلاغه برپايه معناشناسى شناختى قالبى (بررسى موردى فعل رأى باتكيه بر ترجمه هاى دشتى، جعفرى و شهيدى)»، فصلنامه پژوهشنامه نهج البلاغه ، سال پنجم ، ش 19.
8. شاهد ، امير (1379هـ) ، ضرب المثل‌هاى رايج در زبان عربى ، ترجمه وتحشيه : فرائد الأدب ، أصفهان : جهاد دانشگاهى .
9. الشريشي ، أبوالعباس أحمد بن عبد المؤمن (بلا . ت) ، شرح مقامات الحريري ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، بيروت : المكتبة العصرية .
10. ابن الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا (1973م) ، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، حققه وضبطه وشرحه : عبد القادر محمد مايو ، بيروت : دار القلم العربي .
11. عتيق ، عبدالعزيز (2009م) ، في البلاغة العربية علم المعاني ، بيروت : دارالنهضة العربية .
12. الكليني، أبو جعفر محمد بن يعقوب بن اسحق (بلا . ت) ، أصول الكافي ، بيروت : دار المحجة البيضاء .
13. المجلسي ، محمد باقر (1983م) ، بحارالأنوار، ط 3 بيروت : دار إحياء التراث العربي .
14. مرادي ، محمدهادي (1388هـ) ،«فن المقامات ، النشأة والتطور : دراسة وتحليل» ، مجلة التراث الأدبي ، العدد 4 .
15. المزيد ، خالد محمود (2007م) ، صور من حياة العامة في مقامات الحريري ، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية ، المجلد 34 ، العدد 1 ، عمان : الجامعة الأردنية .
16. مسبوق ، سيّد مهدي ؛ دلشاد ، شهرام (1438هـ) ، التمظهرات الدينية في رحلة ابن جبير الأندلسي، مجلة آفاق الحضارة الإسلامية ، أكاديمية العلوم الإنسانية والدراسات الثقافية ، السنة 20 ، العدد 1.
17. مصطفى ، ابراهيم ؛ حسن الزيات ، احمد ، وآخرون (1427هـ) ، المعجم الوسيط ، طهران : مؤسسة الصادق للطباعة و النشر .
18. إبن منظور، جمال الدين (1994م) ، لسان العرب ، ط3 بيروت : دار إحياء التّراث العربي .
19. المنياوي ، هند (2018 - 2017م) ، تحليل النفس أجب بكل صراحة ، مكتبة نور (بلا . مك) .
20. الميداني ، أبوالفضل (1959م) ، مجمع الأمثال ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، مصر : دارالسعادة .
21. الهلال ، محمد غنيمي (2008م) ، الأدب المقارن ، ط9 القاهرة : نهضة مصر .

22.يعقوب ، اميل بديع (بلا . ت) ، موسوعة النحو والصرف والإعراب ، بيروت : دار العلم للملايين .
23.يوسف موسى ، محمود (1960م) ، الأخلاق في الإسلام ، القاهرة : مؤسسة المطبوعات الحديثة .